نظرة تاريخيّة نقديّة للحملات الصليبيّة الرئيسة
الآثار والنتائج

ناديا محمد زهير الغزولي [*]

الملخص

تمتدّ الحملات الصليبيّة الرئيسة المتوجّهة إلى بلاد الشام ما بين عامي ١٠٩٥-١٢٩١م. والقاسم المشترك بينها جميعاً عنوان ظلم الآخر والاعتداء عليه وسلبه حقوقه الطبيعية، ولهذا نجد في كلّ حملة أنَّ السبيل الوحيد المتّبع لاستمرار تواجد الصليبيين في البلاد والمدن ارتكاب المجازر الجماعيّة بحقّ أهلها الأصليين، وإضرام النيران في المدن للحصول على الأسلاب، ثمّ القيام بسلسلة من الغارات السريعة على الأراضي المجاورة لهذه المدن بهدف الحصول على المؤن ومِن ثَمَّ تخريبها. لذلك أخذ البحث بعين الاعتبار تبدّل طابع الفكرة الصليبيّة واتّساع رقعة حروبها، وممارساتها غير الإنسانيّة التي أعطتها طابع التعصّب والعنف.

ومن الواضح أنّ هذه الحروب والحملات تمثّل روح العالم الغربيّ الوسيط والأفكار السائدة فيه في الدين والحرب؛ الأولى مثّلتها قوّة الكنيسة المسيطرة في تلك القرون، والثانية مثّلها النظام الإقطاعيّ.

وإنَّ النظرة التقّليديّة لأسباب قيام الحرب الصليبيّة جعلت السبب الديني هو الأساس في قيامها، فهو حجّ مسلّح، هدفه تحرير القبر المقدّس في كنيسة القيامة، ومع أنه لا يمكن إنكار العامل الدينيّ، القائم على استغلال الدين والتعصّب المقيت، ولكن هذا لا يخفي الأسباب الأخرى لهذه الحروب، كالمصالح والأطماع الاقتصادية، والسياسية. أمّا سياسيًّا، فقد وجدت البابويّة فيها وسيلة ناجحة لتوجيه الغرب نحو وجهة واحدة، حيث تمكّنت من خلالها من تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدّرات القوى السياسيّة، والواقع أنَّ الحرب هي الغرض الأساسي الذي قامت لأجله الحملات الصليبيّة، فالحرب كانت أساس الحياة في الإمارات التي أقيمت في الشرق العربي. ومن أجل هذه الحرب ارتكب الصليبيّون العديد من الجرائم الدمويّة. إنَّهم همج أتوا لتدمير حضارة الشرق التي احتاجت لقرنين من الزمان لتتمكّن من التأثير على طباع هؤلاء المحاربين فتهذّبها إنسانيًّا وأخلاقيًّا.

كلمات مفتاحية: الحملات الصليبية، البابوية، الحج المسلّح، بلاد الشام، الشرق.

---

*- دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربويّة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

مقدّمة

رغم اتّفاق الحرب الصليبيّة مع غيرها مِن الحروب إلاّ أنَّها تختلف في طبيعتها وخصائصها، فلها مقوّماتها والأسس التي ترتكز عليها، ويمكن تحديد المقصود بالحركة الصليبيّة[١] وفقًا لوجهة النظر التي انطلقت لدراستها.

فعدَّ بعض المؤرّخين هذه المصادمات العسكريّة أنَّها الصراع التقليديّ القديم بين الشرق والغرب رُبط بالعامل الحضاريّ، فهو صراع بين حضارتين مختلفتين وعقليّتين متباينتين، بدأت مِن خلاله أوروبا مزاحمة السيطرة العربيّة المتفوّقة في البحر المتوسّط، أو أنَّها انطلاقة كبرى نتجت عن عمليّة الإحياء الديني، وحركة الإصلاح الكلونيّة التي ترتّب عليها عودة البابويّة إلى سطوتها القديمة السابقة، وتحقيق نوع مِن الإشراف المركزيّ على الكنائس كافّة، فكانت الدعوة للحجّ عام ١٠٩٥م استمرارًا لحركة الحجّ الجماعيّ إلى بيت المقدس مع تطوّر في الأسلوب؛ إذ أصبح الحجّ حربيًّا بعد أنْ كان سلميًّا، فهي بهذا التصوّر حدّدت طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب في تلك العصور وفقًا للسياسة الخارجيّة للبابويّة[٢]، على اعتبار الدور البارز الذي قامت به مِن الإعلان عنها والإشراف عليها. إذًا هي جدال العالم[٣]، فهي تمثّل حربًا عالميّة في تلك المرحلة، تمهيدًا لتطوّر فكرة الاحتلال الأوروبيّ في العصر الحديث[٤].

وجعل فريق مِن المؤرّخين الحركة الصليبيّة وسيلة تحايل بها الغرب للخروج مِن أوضاع العصور الوسطى، وللانطلاق إلى حياة أوسع، فقد حقّقت هذه الحروب أمنيات الناس في الوصول إلى حياة

---

[١]- الحروب الصليبيّة: أتت هذه التسمية مِن معنيين: الأوّل إشارة إلى صليب صغير أحمر مصنوع مِن القماش كان يلصق على الكتف الأيمن للفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب. والثاني ترجمة لكلمة مستعملة في اللغة الإنكليزيّة مِن أصل لاتيني **Crusades** تعني الحروب أو الحملات التي شنّها مسيحيّو أوروبا في سبيل استرداد الأرض المقدّسة. المؤرّخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربيّة السعوديّة، ١٩٥٨م، ص١٨. محمّد ماهر حمّادة، وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي ٤٨٩-٦٥٩هـ/١٠٩٦-١٤٠٤م «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام ٥، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٩. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلاميّة في مواجهة المخطّطات الصليبيّة جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧م، ص٨٣. سهيل زكّار، الحروب الصليبيّة الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كُتبت أصلًا بالإغريقيّة والسريانيّة والعربيّة واللاتينيّة، دمشق، ط١، ١٩٨٤م، يوميّات صاحب أعمال الفرنجة، ص١٩٢.

[٢]- أرنست باركر، الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، بيروت، ط٤، ١٩٦٧م، ص٣.

[٣]- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، لبنان، ١٩٩٧م، ج١.

[٤]- يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط١، ١٩٩٩م. ص١٠. محمّد مؤنس عوض، الحروب الصليبيّة، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٢-١٣.

أفضل حتّى كانت تؤيّدها الكنيسة والبابويّة[١]، فقد كانت ترى فيها وسيلة ناجحة مِن أجل توجيه الغرب الأوروبيّ مِن خلال هيمنتها على المقدّرات السياسيّة[٢]. ورغم تبدّل الفكرة الصليبيّة على مدار قرنين مِن الزمان، وظهور هذا التبدّل والتطوّر فيها عبر الحملات الصليبيّة الرئيسة، إلّا أنَّ الممارسات واحدة، فكان العنف صفة مميّزة للمرحلة، تحوّل فيها سفك الدماء إلى ما يشبه الجنون العام والصفة الغالبة، وهذا إن دّل على شيء فهو دليل العجز وليس القوّة[٣].

أوّلًا: الحملة الأولى

١. الفكرة

ظهرت في الحروب الصليبيّة رؤية كلّ فريق «للآخر» وتبلورت نتيجة التلاحم العسكريّ والاحتكاك الحضاريّ بشتّى جوانبه، وتُعدّ الحملة الصليبيّة الأولى الفصل الأساس في تاريخ هذه الحركة، ففيها تبلورت الفكرة الصليبيّة نفسها، وحقّقت نجاحًا منقطع النظير، وترتّب عليها الكثير مِن الآثار الخطيرة[٤]، تتعلّق بالأسس والممارسات التي اتّبعها الصليبيّون في هذه الحملة وجعلتها الحملات اللاحقة قواعد وقوانين سارت عليها ظنًا منها أنَّها الأسلوب الواجب تنفيذه لتحقيق نتائج الحملة الأولى نفسها، سواء لديهم أكانت هذه الممارسات منطقيّة أو لاإنسانيّة.

وإذا عدّ عام ٤٨٩هـ[٥]/١٠٩٥م عامًا لبداية الحروب الصليبيّة، فإنَّه لا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمنيّ الجاف؛ لأنَّ روح هذه الحركة وصفاتها كانت موجودة في الغرب قبل ذلك بعشرات السنوات، ولم يكن ينقصها سوى أنْ تصطبغ بالصبغة الرسميّة، وأنْ يوجد مَنْ يعلن مولدها، وهذا ما فعله البابا أوربان الثاني (٤٨١-٤٩٣هـ/ ١٠٨٨-١٠٩٩م) عندما بشَّر بتلك الحركة في مجمع

[١]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م، ص٢١-٢٤.

[٢]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢١.

[٣]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة الأعمال المنجزة فيما ما وراء البحار، نقله للعربيّة: سهيل زكّار، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ج١، ص٢٨٢-٣١٤-٣٢٩، ج١، ص٤٣٦. متّى الرهّاوي، تاريخ متّى الرهّاوي الإفرنج الصليبيّون، المسلمون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفى، الأردن، ٢٠٠٩م، ص٤٥. ابن الأثير عزّ الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، الكامل في التاريخ، حقّقه: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م، ج٨، حوادث سنة ٤٩٢هـ. ابن القلانسي حمزة بن أسد بن علي بن محمّد التميمي، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥هـ، تحقيق: سهيل زكّار، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م، ص١٣٧. سعيد عبد الفتّاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م، ص١٩٦.

[٤]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص١-٢.

[٥]- جعل ابن القلانس عام ٤٩٠هـ هو بداية الحملات الصليبيّة فقال: «وفي هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الأفرنج مِن بحر القسطنطينيّة...». ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٢١٨.

كليرمونت، الذي دعا فيه إلى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس ممالك لاتينيّة فيها[١]، وتلبيةً لنجدة الأباطرة البيزنطيين بعد خسارة معركة ملازكرد عام ١٠٧١م[٢]، فكان كتاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس إلى البابا أوربان مفتاح العمل الذي أدّى إلى الحملة الأولى[٣].

اللافت للنظر هو ما طرأ مِن تطوّر على الفكرة الصليبيّة نفسها، فإذا كانت انطلقت مِن البابويّة وتحت رعايتها في الحملة الأولى، فإنَّها في الحملة الثالثة أصبحت مِن اختصاص السلطة المدنيّة، حيث بدأت الحكومة تتولّى تنظيمها على أساس نظام الضرائب، وعلى أساس المفاوضات[٤]. وهنا بدأت البابويّة تقف موقف المناوئ للحملات الصليبيّة، حيث تحوّلت قيادتها مِن يد الأمراء إلى يد الملوك، باستثناء الحملة السابعة؛ لأنَّ قائدها كان الملك لويس الذي يُعدّ قدّيسًا[٥].

ونتيجة هذا التغيير ظهرت بوضوح المطامع الدنيويّة للحملات، إذ تحكّمت البواعث الاقتصاديّة والسياسيّة والشخصيّة بالحملات المنحرفة[٦]، حيث آمن غرب أوروبا بأنَّ مصر يجب أنْ تكون الهدف الأوّل للحملات الكبرى التي تخرج إلى الشرق؛ لأنَّها مخزن الإمدادات وحجر الزاوية بالنسبة للمشروعات الصليبيّة[٧]، وهذا ما حدث في الحملة الخامسة.

وقد أثّر تغيّب الدافع الدينيّ في تراجع الحركة الصليبيّة، يؤكّد ذلك تشكيك المفكّرين الأوروبيين في جدوى هذه الحرب، فيقول متّى الباريزي أنَّ بابا روما لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبيّة إلّا بالقدر الذي يخدم أطماعه ويحقّق مصالحه العلمانيّة، ويسخر الشاعر رتيف الفرنسي مِن رجال الدين الذين جعلوا مِن الحرب الصليبيّة وسيلةً لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم في الشرق، وممّا ساهم في نبذ فكرة الحرب المقدّسة تأقلم الفرنجة المقيمين في الشرق مع الحياة الشرقيّة وخلافهم مع القادمين الجدد الراغبين في امتلاك الأراضي والإقطاعات[٨].

---

[١]- وصف أوربان في خطبته بيت المقدس بقوله: «إنَّ أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج...». محمّد ماهر حمادة، وثيقة خطاب البابا أوربان الثاني، المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٦٣هـ. وثيقة رسالة ألكسيس كومنين الأوّل إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة عام ١٠٨٨م. مِن كتاب محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص٩٧.

[٣]- هـ.ا.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العريني، مصر، ط٣، ١٩٥٧م، ص١٧٤.
MARGARET RUTH MORGAN, DOCUMENTS SELATIFS A L'HISTOIRE DES CROISADES PUBLES PAR L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES - LETTRES, XIV, LA CONTINUATION DE GUILLAUME DE TYR 11841197-, PARIS, 1982, P

[٤]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٩٣. نعمان الطيّب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط١، ١٩٩١م، ص٣٢٩.

[٥]- رأفت عبد الحميد، قضايا مِن تاريخ الحروب الصليبيّة، ط١، ١٩٩٨م. ص١١.

[٦]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص٩.

[٧]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبيّة، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ص٣٧.

[٨]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٨٤-٩٩.

والتطوّر الآخر والأكثر عمقًا لفكرة الحركة الصليبيّة تمثّل في إضفاء المظهر الدنيويّ والدبلوماسيّ للحملات، وقد ظهر ذلك جليًّا في الحملة السادسة؛ إذ تصرّف الملك فريدريك بروح ملك صقليّة لا بروح ملك بيت المقدس[١]؛ إذ عبرّ فريدريك عن موقف الرجال الأحرار، فكان أقلّ خضوعًا للكنيسة التي كانت تبتعد شيئًا فشيئًا عن التعاليم المسيحيّة[٢].

لتؤكّد الحملة الثامنة التطوّر الاقتصاديّ والفكري للفكرة الصليبيّة، فكانت أصدق تعبير عن الدوافع الاقتصاديّة والسياسيّة والتنصيريّة، فاختارت أنْ تكون وجهتها تونس.

أثّرت هذه التغييرات على جوهر فكرة الحروب الصليبيّة؛ إذ لم يرَ أنصار البابويّة مِن داع للقيام برحلة شاقّة إلى الشرق بعد الحملة الثامنة[٣]، ترافق ذلك بولادة أفكار جديدة لدى الأطراف الأوروبيّة والطرف المملوكي أدّت إلى نوعٍ جديد مِن العلاقات الدوليّة الدبلوماسيّة التجاريّة، فوظّف المماليك سلسلة مِن التحالفات والمعاهدات مع مصدري التحدّي، المغول والقوى المسيحيّة، وفي مواجهتها في الوقت نفسه؛ وذلك مِن أجل إصابة هدفين: تحجيم الأثر السلبي لـمغول فارس، وتصفية بقايا الوجود الصليبي[٤]. إلاّ أنَّ الصراع السياسي والعقيدي بين الطرفين لم ينته، لكنَّه أفرز أدوات جديدة لإدارته[٥]، لكنَّه أدّى في النهاية إلى انتهاء الصورة التقليديّة للحروب الصليبيّة.

٢. الدوافع

مهما كان أصل فكرة الحركة الصليبيّة فهناك عوامل متعدّدة ومتشابكة ساهمت في قيامها، ويُعدّ الدافع الشخصيّ مِن أبرز هذه العوامل[٦]، فالثابت تاريخيًّا أنَّ المسؤول الأوّل وصاحب الدور الرئيس في تحقيق الفكرة هو البابا أوربان الثاني[٧]، حيث كان على علم بالأوضاع السائدة في العالم

---

[١]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص١١٥.

[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص١٠٠.

[٣]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٥٨٠.

[٤]- نادية محمود لطفي، العصر المملوكي مِن تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبيّة الثانية، العلاقات الدوليّة في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٣. محمّد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص١٨٠.

[٥]- نادية لطفي، المرجع السابق، ص٣٨.

[٦]- ظهرت عدّة نظريّات نسبت قيام الحركة الصليبيّة لشخص دون آخر، مِن هذه النظريّات أنشودة رولان وقصيدة حجّ شارلمان، وهما أسطورتان بعيدتان عن الحقيقة، بينما يُعدّ خطاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة أسطورة أو وثيقة مزوّرة، وهناك أساطير قامت حول زعماء الحملة الأولى مثل بطرس الناسك، ذاعت هذه الأساطير في الغرب طيلة الحروب الصليبيّة بقصد التسلية وإثارة الهمم. وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٦٧. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٥١-٥٥.

[٧]- فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١م، ص٨١.

العربي ودولة الروم، فبذل جهده في سبيل الدعوة لعقد مؤتمر كليرمونت، وتوّج عمله بإعلان هذه الحركة عام ١٠٩٥م، وحمل الجميع شارة الصليب[١]، وتولىّ قيادة الحملة أحد رجال الكنيسة لي بويه، وهو دليل على خضوع الحملة لإشراف الكنيسة مباشرة. مِن هنا، وعلى هذه الأسس، نظر إليها المؤرّخون الغربيّون على أنَّها حروب دينيّة[٢]، إضافة إلى أنَّ مخاطبة البابا الفرسان دون الملوك أثناء خطبته تعني صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنيّة في أوروبا[٣]، وأنّه هو المسؤول عن هذه الحملات، وليس معنى هذا أنَّ التيّار الدينيّ هو المسؤول الوحيد عن إثارة هذه الحركة؛ لأنَّه بالنظر لتطوّر الفكرة الصليبيّة، نجد أنَّ الباعث الدينيّ كثيراً ما ذاب وسط التيّارات السياسيّة والاقتصاديّة[٤].

تواءمت دعوة أوربان الثاني مع طموحات رجال الدين والعلمانيين، ويرجع ذلك لظاهرة العنف التي شهدتها فرنسا في القرن العاشر الميلاديّ، فقد قامت فرنسا في الحروب الصليبيّة مقام الروح مِن الجسد، وغدا فرسانها نموذجًا لغيرهم مِن الفرسان الأوروبيين[٥]، فالمجتمع الفرنسّي كان ميالاً للعنف الذي أدّى إلى سيطرة مبدأ الرغبة في الحرب، فعندما توقّفت الإمبراطوريّة الكارولنجيّة عن التوسّع، تحوّل محاربوها للدفاع عن فرنسا، لكنَّ الجماعات المسلّحة المحليّة لم تتفكّك بل وجّهت نشاطها نحو مهاجمة المزارعين العاديين في المناطق المجاورة.

ويميل جوناثان ريلى –سميث إلى الاعتقاد بأنَّ رسالة أوربان التاريخيّة كانت تقليديّة، فهي لم تكن تختلف عن كثير مِن الرسائل التي قدّمها مصلحو الكنيسة في ذلك الحين[٦]، لكنَّها طرحت أمام المجتمع الأوروبيّ هدفًا عامًا يمكن لكلّ قوّة مِن القوى الفاعلة في هذا المجتمع أنْ تعبرّ عن نفسها مِن خلاله[٧]، فكانت بيت المقدس الهدف الذي يسعى المؤمنون للوصول إليه، لذلك كانت استجابة العلمانيين إيجابيّة[٨]. وقد رأى ملوك وأباطرة الطبقة الحاكمة في المشروع الصليبيّ دعمًا لنفوذهم السياسيّ داخليًا، ودعمًا لبلادهم خارجيًّا، ومجالاً خصبًا للتنافس الدولي وتحقيق

[١]- المؤرّخ المجهول، خطبة أوربان، مِن كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى نصوص ووثائق تاريخيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠١م، ص٧٧.

[٢]- فوشيه دي شارتر، المصدر السابق، ص٨٠. ريموناجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس، تر: حسين عطيّة، الإسكندريّة، ١٩٩٠م، ص٥٤. وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٦٨-١٧٣. أرنست باركر، المرجع السابق، ص٩-٢٢. ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص١٦٤.

[٣]- رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص١٦.

[٤]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢٨.

[٥]- فشر، المرجع السابق، ص١٧٩.

[٦]- جوناثان ريلى – سميث، المرجع السابق، ص١١.

[٧]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص١١.

[٨]- جوناثان ريلى – سميث، المرجع السابق، ص١٢.

المكاسب[١].

بينما كانت حماسة المدن التجاريّة الإيطاليّة لفكرة الحروب الصليبيّة مِن منطلق اقتصاديّ، لذلك لم يعرضوا مساعدتهم لهذه الحملات إلّا بعد نجاح الحملة الأولى وإقامة إمارات في بلاد الشام[٢]، إذ رأت في ذلك فرصة ذهبيّة لتدعيم وجودها التجاريّ في عالم البحر المتوسّط، بتحويل مدنه الساحليّة أسواقًا تجاريّة حرّة[٣]، والسيطرة على الطرق التجارة للسلع الشرقيّة، فامتلاك طريق مصر وبلاد الشام والشمال الإفريقيّ هو حجر الزاوية في هذه السياسة الاقتصاديّة، ولم يتمثّل دور هؤلاء التجّار في قيام الدويلات اللاتينيّة في الأرض المقدّسة بل امتدّ للحفاظ عليها أطول مدّة ممكنة، لذلك تضمّنت الامتيازات التي حصلوا عليها مِن حكّام مملكة بيت المقدس مزايا إقليميّة وماليّة وقضائيّة مقابل مدّ هذه الدويلات بالإمدادات والمؤن والحجّاج[٤].

بينما كانت حماسة النورمان في إيطاليا بدافع مِن كراهيّتهم العميقة للإمبراطوريّة البيزنطيّة، فقد كانوا يرون بالحروب الصليبيّة أنَّها موجّهة ضدّ البيزنطيين أكثر منها حربًا ضدّ المسلمين، وبتشجيع مِن البابويّة[٥].

وفسّر ستيفن رنسيمان النجاح الغريب الذي حظيت به الدعوة إلى الحروب الصليبيّة في ضوء الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة السيّئة نتيجة الغزوات الجرمانيّة وما تلاها مِن مشكلات[٦]، التي تمثّلت بازدياد معدّل النمو، حيث ازدادت الحاجة إلى التوسّع خارج أوروبا، فلم تكن مواردها تكفي حاجات السكّان، ما ساعد على تصاعد حدّة العداء ضدّ العرب الذين كانوا يفرضون وجودهم في كلّ الاتجاهات، يدعم ذلك المستوى الثقافيّ، ففي مجتمع يسوده الجهل وتفشّي الأمية تختلط المفاهيم الدينيّة بالخرافات، لا بدّ أنْ تكون الاستجابة لهذه الحرب قويّة بل هستيريّة، وهو ما حدث

---

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٢.

[٢]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٥٩٩. ناديا محمّد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبيّة ٤٩٨-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م، ص٥٨.

Gino Lazzatto, An economic History of Italy, London,1961, p73.

[٣]- شارل ديل، البندقيّة إمبراطوريّة أرستقراطيّة، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م، ص٢-٣٠. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠٠م. ص١١٣.

[٤]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص٦٠٢. يعقوب الفيتري بطريرك عكا، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، الأردن، ١٩٩٨م، ص١٠٨. شارل ديل، المرجع السابق، ص٣١. فشر، المرجع السابق، ص١٨٢-١٨٣. ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص٥٩-60. **Gino Lazzatto, p72.**

[٥]- فشر، المرجع السابق، ١٧٦.

[٦]- ستفين رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص١٧١- ج٣، القسم الثاني/ ص٦٠٠.

بالفعل، فيكتسب المشعوذون والمبشّرون مكانة هائلة في نفوس البسطاء، أمثال بطرس الناسك[١]، فقد كان بطرس وأمثاله تجسيدًا لحالة الهلع التي حكمت المجتمع الغربيّ آنذاك، وقد أثمرت جهود هؤلاء المبشِّرين الجوّالين في تكريس العداء ضدّ العرب، فكان أبناء الغرب يتحرّقون شوقًا للقضاء عليهم.

ساهم في دعم هذه الجهود العدائيّة مؤرّخو الحملة الصليبيّة الأولى، فتكشف الأوصاف التي أسبغوها على المسلمين عن مدى التعصّب الذي حكم أوروبا أثناء التحضير للحملة. واللافت للنظر أنَّ الشخصيّة الإسلاميّة التي صوّرتها كتابات هؤلاء المؤرّخين، ونصوص الخطبة التي أوردها أوربان، شخصيّة مثقلة بكلّ الشرور والخطايا والآثام، هذا التصوّر كتبه مؤرّخو الحملة قبل أنْ يروا فعلاً مسلمًا واحدًا، فاستخدموا كلّ صياغاتهم الكريهة لتحريض الكاثوليك[٢]، وكان ذلك دافعًا قويًّا للممارسات اللاإنسانيّة التي قام بها منفّذو الحملة الأولى.

يضاف إلى ذلك كلّه أسباب لم تكن واضحة بين الناس في ذلك الوقت؛ لأنَّ مِن الخصائص العامّة في الخلافات التاريخيّة أنَّ أقوى الأسباب لا تكون أكثر ذيوعًا، وتتمثّل في الخلاف المذهبي بين الكنيسة البيزنطيّة والكنيسة الرومانيّة[٣]. وقد أضاف المؤرّخون العرب إلى ذلك الباعث التنصيريّ، فقد أرادت البابويّة توحيد الكنيستين مِن جهة، وتحويل مسلمي الشرق إلى أنْ يكونوا مسيحيين تابعين للكنيسة الكاثوليكيّة في روما مِن جهة ثانية[٤].

٣. اللاإنسانيّة والهمجيّة خطا الحملة الأولى

قدّمت الحملة الأولى نموذجًا لمدى ما يمكن أنْ ينتج مِن استجابات في مجتمع جعل العنف شريعته وألبس الحرب ثوب الدين، فكانت خطّة الصليبيين في سيرهم نحو الشرق تقتضي الاستيلاء على الغنائم وحرق كلّ ما لم يستطع الجيش حمله، ويوحي مشهد الحملة الشعبيّة بتطوّراتها المختلفة بأنَّ روحًا مِن الجنون كانت تحلّق في سماء الغرب الأوروبيّ، ويؤكّد سلوك الصليبيين القادمين إلى

---

[١]- بطرس الناسك: كان يُعدّ بمثابة التجسيد الحيّ للروحانيّة الشعبيّة، وقد كشفت دراسة هنريخ فون سايبل عام ١٨٤١م زيف هذه الأسطورة التي أحاطت ببطرس الناسك. رواية جيوبرت النوجنتي عن بطرس الناسك، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص٩٨-٩٩. يوشع براور، المرجع السابق، ص٢٠. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبيّة، تر: أحمد الشيخ، ط١، ١٩٩٥م، ص٥٥.

[٢]- فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص٦.

[٣]- فشر، المرجع السابق، ص١٧٤.

[٤]- أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتّي، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ب.ت، ص١٣٤-١٣٥. ابن جبير أبو الحسين محمّد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت، ص٢٨١. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٨.

الشرق وما قاموا به مِن غارات وحشيّة بربريّة وأعمال إرهابيّة ضدّ حتّى الشعوب المسيحيّة التي مرّوا بها[١]، أنَّ هؤلاء تحرّكوا بوحي بطونهم لا قلوبهم وعقولهم[٢]. فيذكر ريموندا جيل تصّرفات القادمين مِن الغرب أثناء عبورهم بلاد اليونان بقوله: «جيش ريموند أثناء تدميره -كعادته- للقرى والمدن المحصّنة ..... وصلنا إلى روسا Roussa وهي مدينة نتج عن الاحتقار السافر الذي أبداه سكّانها تجاهنا، أنْ فقدنا صبرنا الذي عرفنا به، فحملنا السلاح، وهدمنا الأسوار الخارجيّة، وغنمنا غنائم كثيرة ..... وعندما هاجمتنا القوّات التابعة لألكسيوس .... ذبحنا بعضهم ...»[٣].

فقد اعتبروا أنفسهم أصفياء الربّ؛ لأنَّهم الفقراء، ولكنَّ هذا لم يكن ليمنعهم مِن انتهاك الفكرة الدينيّة التي تحرّكوا في إطارها، وارتكاب أحطّ ضروب الجرائم، والكشف عن أبشع الشرور الماديّة والدنيويّة. كانت الحركة الصليبيّة متنفسًا لجماهير الفلاّحين وعامّة سكّان المدن ليطلقوا العنان لعواطفهم الهادرة العنيفة، وكانوا يرون في التصرّفات العنيفة وسيلة فعّالة للتنفيس عن القلق[٤].

المجد والشهرة والمال هذا ما كانت تردّده القصص التاريخيّة عن الحملة الصليبيّة الأولى عقب صياغة قرار مجمع كليرمونت[٥]. وللحصول على المال، فقد سيطرت على الصليبيين فكرة جمع

الغنائم، فالاستيلاء عليها كان منتهى آمالهم وتوقّعاتهم، حيث مارسوا عمليّات السلب والنهب في كلّ منطقة حلّوا بها، وجرّدوا كلّ مَنْ يقع في قبضتهم ما يملك، سواء أكان جيشًا منهزمًا أم مدينة أم قلعة، وشاعت مقولة «اليوم سنصبح كلّنا أغنياء بمشيئة الله»[٦]، فيذكر متّى الرهّاوي ذلك بقوله: «كان النصر حليف الصليبيين، حيث أجبروا الأعداء على التقهقر .... حتّى أغرقوا البلاد ببحر مِن الدماء، وسيطروا على نيقية بقوّة السلاح وذبحوا كلّ الكفار..... سحقوهم مِن غير رحمة حتّى امتلأ السهل بالجثث»[٧].

هكذا كانت سياسة الصليبيين بعد الاستيلاء على أيّ مدينة واحدة، فعندما دخلوا أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨م نهبوا بيوتها مِن المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، وحطموا كلّ ما صادفوه

---

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٢٨.
[٢]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص١١.
[٣]- ريموندا جيل، المصدر السابق، ص٧١.
[٤]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩٧.
[٥]- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص٨٠.
[٦]- المرجع نفسه، ص١١٨.
[٧]- متّى الرهّاوي، المصدر السابق، ص٦٧-٦٨-٦٩-٧١. رواية آنا كومنينا عن الحملة الصليبيّة الأولى مِن كتابها الأليكسياد **Alexiad**، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص١٢٤. ووردت في كتاب سهيل زكّار، الحروب الصليبيّة الحملتان الأولى والثانية، المصدر السابق، ص١٢١-١٣٦.

مِن النفائس والأسلحة، فما مِن أحد يستطيع أنْ يرتاد الشوارع دون أنْ تتعثّر قدماه بالجثث التي لم تلبث أنْ تعفّنت بتأثّر حرارة الصيف[١].

رسّخت الحملة الصليبيّة الأولى مجموعة معاملات شكّلت بمجموعها نظمًا أخلاقيّة اتّخذها الصليبيّون في الحملات اللاحقة، قاعدة طبّقوها خلال خطّ سيرهم إلى الشرق، فرسّخت الحملة الأولى فكرة أنَّ للحصول على المؤن لا بدّ مِن الغارات على الأراضي العربيّة، فبعد الاستيلاء على أنطاكية هاجموا عزاز الواقعة على الطريق الرئيس المؤدّي مِن الرها وتلّ باشر إلى أنطاكية[٢].

أمّا القاعدة الثانية: الغارات على المناطق الريفيّة للحصول على الأملاك، فبعد استقرار الجيش الصليبي في أنطاكية واحتلالها، انطلق الطمع والجشع المكبوتان، فأخذ القادة والرؤساء يغيرون على المناطق الريفيّة المجاورة لأنطاكية، ولمّا كانت المقاومة المحليّة ضعيفة، فإنَّ القرى والمدن والقلاع لم تلبث أنْ خضعت للصليبيين[٣].

بينما يمثّل اللجوء إلى الخدعة وإعطاء الوعود الكاذبة لأهل المدن كي يتمكّنوا مِن دخولها والسيطرة عليها القاعدة الثالثة التي طبّقها الصليبيّون في حملاتهم كافّة، فعندما استسلم سكّان البارة الواقعة إلى الجنوب الشرقي مِن أنطاكية، تعرّض سكّانها للموت قتلاً وجرى بيع الباقي رقيقًا في أنطاكية، وكما فعل بوهمند مع مدينة معرّة النعمان، فأعلن مناد أنَّه إذا استسلمت المدينة فسوف يبقى على حياة كلّ المدافعين عنها، لكنْ عند استأنف القتال في اليوم التالي لم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة، فقد اقتحم الصليبيّون الدور ونهبوها وأحرقوها، ولقي الرجال مصرعهم بينما بيع الأطفال والنساء رقيقًا[٤].

وما يجعل الحملة الصليبيّة الأولى في مصاف الثأر والانتقام، وهي القاعدة الرابعة لجني نتائجها، ما قامت به الحملة بعد أنْ وصلت للقدس، حيث استمرّ حصار القدس خمسة أسابيع، وأعقب سقوطها مذبحة فظيعة راح ضحيّتها المدافعون عن المدينة وسكّانها، فيذكر ريموندا جيل مذبحة بيت المقدس بقوله: «سفك تانكرد وجودفري كميّة لا تصدّق مِن الدماء، ..... بينما عُذّب آخرون لوقت طويل، وأحرقوا حتّى الموت في اللهب المتأجج، وتكدّست في الطرقات والبيوت

[١]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص٣٣٤.
[٢]- المرجع نفسه، ج١، ص٣٦٥.
[٣]- يوشع براور، المرجع السابق، ص٥٦.
[٤]- ستفين رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص٣٦٦-٣٦٩.

الرؤوس، والأيدي، والأقدام، وفعلاً فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئة وذهابًا فوق الجثث»[١]، وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية، وفاض الدم في الشوارع، وظلت أكوام الجثث مصدر إزعاج في الشوارع أيامًا طويلة. وفي هذا الجوّ الموحش الذي تغلّفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، اجتمع الصليبيّون في كنيسة القيامة، وتردّدت عبارة «Te Deum laudamus» أي «نحمدك يا الله» في الكنيسة القديمة، ويبرّر ريموندا جيل مذبحة القدس بأنَّها عدالة إلهيّة: «فيكفي أنْ أحكي أنَّه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الصليبيّون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم، وفي رأيي هذا عدالة إلهيّة تتمثّل في أنْ يتلقّى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبّوا الربّ هناك لسنوات كثيرة، وامتلأت بيت المقدس الآن بالجثث، وتلطّخت بالدماء»[٢]. كانت عبارة «Dieu Le Vent» «إنَّها إرادة الربّ» هي صيحة القتال لدى الصليبيين، فكانوا يؤمنون بأنَّ الربّ قد أظهر رغبته في تطهير معقله، وأنَّ القدّيسين ساهموا في المعركة وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين[٣]، ولا يمكن وصف ما قام به الفرنجة في القدس وغيرها مِن مدن الشرق سوى بأنَّهم همج جاؤوا للعبث بحضارة الشرق.

ثانيًا: رعاية ملكيّة للحملة الثانية

عكست حروب الحملة الصليبيّة الأولى تنافس الأسر الحاكمة في الغرب الأوروبيّ مِن أجل احتلال شرق البحر المتوسّط. لقد كان الصليبيّون بشرًا وكانوا مقبلين على دنياهم بجشع غير مسبوق، فعلى صخرة المصالح السياسيّة سقطت مسوح الرهبان التي حرص مؤرّخو الحوليّات الصليبيّة أنْ يلبسوها لأبطالهم[٤]. وانتهت الحملة الأولى وثبّتت أقدام الصليبيين بقيام ثلاث إمارات صليبيّة كبرى الرها وأنطاكية[٥] وطرابلس، وتأسّست المملكة الصليبيّة[٦]، ومنعَ المسلمون مِن الإقامة في المدينة المقدّسة؛ إذ إنَّ الغزاة المنتصّرين عدّوا سكنى المسلمين تدنيسًا للمدينة المقدّسة وانتهاكًا لحرمتها[٧]، ما يدّل على تعصّبهم وهدفهم مِن هذه الحملات، فيذكر فوشيه الشارتري أنَّها كانت

[١]- ريموندا جيل، المصدر السابق، ص٢٤٧.
[٢]- المصدر نفسه، ص٢٤٨.
[٣]- يوشع براور، المرجع السابق، ص٦١.
[٤]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٢.
[٥]- ابن الأثير، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٩١هـ/ ص٤١٦- ٤١٧-٤١٨. ابن تغري بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصريّة، ج٥، ص١٩١. وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص٢٨٢-٣١٤-٣٢٩. سهيل زكّار، يوميّات صاحب أعمال الفرنجة، المصدر السابق، ص٢٣٣. المؤرّخ المجهول، المصدر السابق، ص٦٥.
[٦]- متّى الرهاوي، المصدر السابق، ص٩٩. سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص٢٥.
[٧]- يوشع براور، المرجع السابق، ص٩٥-٦٠.

حربًا مقدّسة، وكان يبدي سروره في عبارات بليغة لما يرتكبه الصليبيّون مِن أعمال وحشيّة ضدّ المسلمين، ولم يخطر بباله أبدًا أنْ يكون لهؤلاء الناس الحقّ في أوطانهم، فقد كان يرى فيهم مجموعة مِن الوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقّون القتل والفناء[١].

وفي بطء عنيد تحوّلت حيازة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة إلى سيادة على أقاليم متّصلة، أخذت في التوسّع والامتداد دون أيّة مقاومة. لقد تلقّى العالم الإسلامي ضربة مفاجئة أثارت الذعر في جنباته، وتسبّبت في شلل إماراته في حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق، وامتنع العمل المشترك بين إمارات الشمال وإمارات الجنوب، وظلّ الحال على ما هو عليه قرابة جيلين تمكّن الصليبيّون خلالها مِن تدعيم وجودهم في الشرق[٢]. وممّا ساعدهم على ذلك هو الواقع السياسيّ لبلاد الشام التي كانت تفتقد إلى التاريخ المركزيّ الموحّد، فلم تستطع أنْ تواجه زحف تلك الظاهرة التاريخيّة[٣].

لقد أقام الإمارات الصليبيّة مغامرون حريصون على الربح والكسب، ولم تفقد الغريزة الفطريّة حدّتها كلّما مضى الزمن، فأنزل أمراء الفرنجة أنواع الظلم والاستبداد بأهل المناطق المحيطة بإماراتهم، وقد أدّى ذلك إلى انهيار الزراعة وتدمير اقتصاد بيت المقدس[٤].

لكنْ ما يدعو إلى الدهشة أولئك الرهبان المحاربين الذين اشتركوا مع الفرنجة في شتّى مراحل الحركة، فرقة الإسبتاريّة[٥] والداويّة[٦]، فقد استحالوا إلى جمعيّات نفعيّة، وأصبحوا يتمنّعون داخل قلاعهم وحصونهم في الشام، ولهم جيوشهم ومواردهم الماليّة وسياستهم الخارجيّة التي تتّفق ومصالحهم الخاصّة، فقد أصبحوا يمتلكون المتاجر والحوانيت، فقد انحرفت تلك الجماعات عن مبادئها الأصليّة وأصبح رجالها رجال دين ودنيا رجال يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون مِن فوق

---

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٣٠.

[٢]- يوشع براور، المرجع السابق، ص٦١.

[٣]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٤٨. كلود كاهن، المرجع السابق، ص٢٨.

[٤]- ابن جبير، المصدر السابق، ص٣٠١- ٣٠٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧١.

[٥]- حصل تجّار أمالفي مِن المسلمين على أذن ببناء مشفى في بيت المقدس عام ١٠٤٨م لإيواء الفقراء والمرضى مِن الحجّاج، ثمّ نظّم ريموند أوف لبوي رجال هذه الجماعة فجعلهم هيئة دينيّة تكرّس حياتها للعفّة والفقر والطاعة وحماية المسيحيين في فلسطين والدفاع عنهم دفاعًا عسكريًّا، ومِن ثَمَّ أصبح الفرسان فرسان القدّيس يوحنّا أو الإسبتاريّة **Hospitallers** مِن أقوى الهيئات في بلاد الشام. محمود عمران، تاريخ الحروب الصليبيّة ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعيّة، ٢٠٠٠م، ص٥٦.

[٦]- وفي عام ١١١٩م نذر هيو أف باينز وثمانية آخرون مِن فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة وخدمة القوّات الصليبيّة، وحصلوا مِن بلدوين الثاني على مبنى لهم بالقرب مِن الموضوع الذي كان فيه هيكل النبيّ سليمان، وقد أطلق عليهم فرسان المعبد. محمود عمران، تاريخ الحروب، ص٥٧.

ظهور الخيل، يتاجرون ويفرضون الضرائب والأتاوات على القوافل المارّة بمعاقلهم في الشام[١]. انتقل فرسان المشفى مِن تمريض الحجّاج إلى الهجوم على حصون المسلمين[٢]، هذا التحوّل في المهام مِن خدمة خيريّة إنسانيّة إلى تقديم خدمات حربيّة مأجورة وممارسة أعمال لا إنسانيّة ضدّ الطرف الآخر، يؤكّد بُعد هذه الجمعيّات عن الدافع الديني لدعم الحملات الصليبيّة.

مع ذلك أصبحت الحملات الصليبيّة عمليّة مستمرّة، فكان تتدفّق على الشرق باستمرار قوّات قادمة مِن الغرب[٣]، وذلك بهدف حماية ما حقّقه الصليبيّون مِن مكاسب، وللفوز بنصيب مِن الغنائم، بالإضافة إلى الحاجة الماسّة للصليبيين في الشرق إلى العنصر البشريّ[٤]. لكنَّ البلاد العربيّة لم تتمكّن مِن التعايش مع الوجود الصليبي على أرضها بشكلٍ سلمي، خصوصًا أنَّ الإمارات الصليبيّة اتّبعت سياسة عدائيّة توسعيّة تجاه جيرانها، فتواصلت الغارات على المناطق الريفيّة غير المحصّنة للاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكّان، وهي سياسة اتّبعها الصليبيّون مع المناطق الداخليّة، فكان أهالي المدن، وخاصّة دمشق، يشاهدون التدمير المنظّم لمزارعهم ومراعيهم دون أنْ يتمكّنوا مِن منعه أو حتّى مقاومته على نحو فعّال، إذ كان مِن المستحيل عمليًّا بناء الحصون نظرًا لقرب قواعد الصليبيين[٥].

فكانت إمارة الرها[٦] تتولىّ تهديد خطوط مواصلات ما بين إمارة الموصل وحلب وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وذلك بسبب وقوعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات[٧]، فكانت بمثابة قلعة حمت الممتلكات الصليبيّة مِن هجمات الجبهة العربيّة الشرقيّة، ما جعل منها عقبة في قيام أيّ وحدة عربيّة، وحاجزًا وخطّ دفاع يحمي البناء الصليبي في الجنوب، إضافة

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٩١.

[٢]- محمود عمران، تاريخ الحروب، ص٦٨.

[٣]- كان قادة هذه الحملات أمراء أمثال سيجورد ملك النرويج، إضافة لأقوام مثل الإنكليز والدانيين، والفرسان الذين جاؤوا للالتحاق بالإسبتاريّة أو الداويّة. ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الأوّل، ص٤٠٠-٤٠١.

[٤]- سالم محمّد الحميدة، الحروب الصليبيّة عهد الجهاد المبكّر، بغداد، ١٩٩٠م، ج٢، ص٢٠.

[٥]- يوشع براور، المرجع السابق، ص٦٤.

[٦]- الرها: منطقة طبيعة معقّدة مِن ناحية التركيب البشري أرمن وسريان وأتراك وتركمان وعرب فضلاً عن الوافدين الجدد الصليبيين، تقع على الطريق الرئيس بين الموصل وحلب، كانت إحدى كراسي المطرانيّة، لكنَّ إمارة الرها كانت بالدرجة الأولى إمارة حرب، حرب بينها وبين المسلمين مِن أجل البقاء، وبينها وبين الممتلكات الأرمنيّة خارجها مِن أجل التوسّع، وبينها وبين إمارة أنطاكية مِن أجل الأطماع الشخصيّة، وحرب شنّتها إلى جانب مملكة بيت المقدس بحكم تبعيّتها الإقطاعيّة لها. ابن الأثير علي بن أبي الكرام، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٦٦- ٦٧. وليم الصوري، المصدر السابق، ج٢، ص٧٣٩. يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص٣٦-٣٧-٣٨. علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبيّة، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط٢، ٢٠٠١م، ص٧-٢٩- ٣٤٨. ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص٣٠٠.

[٧]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج١، ص٢٩٣. علي السيّد علي محمود، العلاقات الاقتصاديّة بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص١٤-١٥.

لمكانتها الدينيّة[١]. لكنَّ القوات العربيّة تحتاج إلى استثمار الوقت المناسب والقائد المحنك لتتمكّن مِن القيام بعمل نوعي، وهذا ما فعله عماد الدين الزنكي[٢] أمير الموصل[٣] في خريف عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م[٤]، ففي هذا العام أصبح النزاع بين إمارة الرها وبين إمارة أنطاكية واضحًا[٥]، بينما تمكّنت بيزنطة مِن طرد الصليبيين مِن كيليكيا، فأصبح التعاون بينها وبينهم مستحيلاً مع تزايد مشاكلها الداخليّة[٦]. أمّا مملكة بيت المقدس، فهي غير مستعدّة للقيام بمغامرة حربيّة في ظلّ ملك ضعيف بعد وفاة الملك فولك Fulk عام ١١٤٣م[٧].

دعم تحرير الرها موقف حلب مِن الدفاع إلى الهجوم، وأزال خطورة وجود قاعدة أماميّة للصليبيين، فعدّ تحريرها بداية النهاية لوجودهم في بلاد الشام[٨]، إذ غيرّ هذا الحدث موازين القوى في الشرق لصالح العرب، وشكّل صدمة عنيفة للصليبيين في الشرق والغرب، وكأنَّ أوروبا كانت بحاجة إلى ما حلَّ بالرها مِن كارثة كي تنهض مِن جديد في دعم الإمارات الصليبيّة الشرقيّة، فتحريرها بعد أقلّ مِن خمسين عامًا على تأسيها كان نذير شؤم عليهم[٩]، فدقّ ناقوس الخطر لباقي الإمارات الصليبيّة التي لم تقدّم أيّ مساعدة إيجابيّة للرها، وبدأت أنظار صليبيي الشرق تتّجه نحو الغرب الأوروبيّ لطلب النجدة، فكانت البعثة الأرمنيّة إلى روما يرافقها أسقف جبلة في إمارة أنطاكية هيو[١٠]. وكانت الحملة الصليبيّة الثانية (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وقد حظيت بعناية خاصّة؛ إذ حلّ الملوك مكان الفرسان في قيادتها، فكانت بقيادة ملك فرنسا لويس السابع (٥٣٢-٥٧٦هـ/

---

[١]- عادل حمزة، العلاقات السياسيّة بين الدولة الأيوبيّة والإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة زمن الحروب الصليبيّة، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠١م، ص٥٤. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص٨٩. عصام محمّد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة- الأيوبيّون، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٢٢.

[٢]- عماد الدين زنكي ٤٧٧-٥٤١هـ: والده قسيم الدولة آقسنقر، تمكّن عماد الدين مِن تكوين جبهة موحّدة لمقاومة الصليبيين واضعًا أوّل حجر في هذا البناء، تمكّن كسياسي بارز وعسكري بارع مِن توحيد جبهة الموصل وحلب. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة، ص٧٤-٨٤. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ٥٢١-٦٣٠هـ/١١٢٧-١٢٣٣م، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٦١-١٦٣.

[٣]- عندما دبّ الضعف في مركز الدولة العباسيّة أخذت المدن تنفصل وتحصل على استقلالها في سياستها وإدارتها، وكانت الموصل إحدى هذه المدن. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلاميّة للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م، دمشق، ٢٠٠٥م، ص١٢-١٥.

[٤]- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٤٣٦. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص١٥٠.

[٥]- علية الجنزوري، المرجع السابق، ص٢٩٨.

[٦]- سالم محمّد الحميدة، المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤.

[٧]- ستفين رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الأوّل، ص٣٧٥- ٣٧٩.

[٨]- ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص٦٩-٧٠. سالم محمّد الحميدة، المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٩.

[٩]- علية الجنزوري، المرجع السابق، ص٣١٤. قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص١٣٨. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الزنكيين، ص١٥٦.

[١٠]- ستفين رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الأوّل، ص٣٩٧. HANS, OP, Cit, p93 .

١١٣٧-١١٨٠م)، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث (٥٣٣-٥٤٧هـ/ ١١٣٨-١١٥٢م)[١].

اتّخذت الحملة مِن ممارسات الحملة الأولى قدوة لها، فعندما وصل ملك ألمانيا كونراد إلى هنغاريا عبرها، بدأ يمارس السلب والنهب والتدمير محاربًا وليس كحاجّ يريد الوصول إلى القبر المقدّس، وهذا يؤكّد صدق مقولة: «جاءت الحروب الصليبيّة لتروي ظمأ وتعطّش الأمراء إلى الحرب والمغامرة»[٢].

وعلى الرغم مِن اختلاف ظروف هذه الحملة عن الأولى في أنَّ الصليبيين القادمين سوف يجدون في بلاد الشام قاعدة حربيّة في متناول أيديهم[٣]، إلاّ أنَّها باءت بالفشل نتيجة فقدان الصليبيين لوحدة الهدف التي كانت تؤلّف بين قوّات الحملة الأولى، وتظهرها بمظهر القوّات المتجانسة، حيث سار كلّ مِن الملكين مستقلاً عن الآخر[٤]. ونتيجة سوء التخطيط والتخبّط الذي عاشه قادة الحملة في الوجهة التي يجب عليهم اتّخاذها لاستعادة الرها، اختاروا محاصرة دمشق، لكنَّه كان تقديرًا خاطئًا اتّسم بالحماقة المطلقة[٥]، مماّ دفعهم للانسحاب تفاديًا لمعركة دمويّة لم تكن في حسبانهم[٦]. فالحملة نسيت هدفها الذي جاءت مِن أجله إلى الشرق وسط دوّامة المصالح المتضاربة للأمراء الصليبيين.

ومِن أهمّ أسباب توجّه الحملة نحو دمشق الجشع في إخضاعها وهي عاصمة الشام التاريخيّة، ولتأمين حدود المملكة مِن جهة الجليل، وللحصول على المكاسب الاقتصاديّة والسياسيّة والإستراتيجيّة[٧]. فهي نقطة تمويل كبيرة وغنيّة، فامتلاكها يقطع صلة بلاد الشام بمصر وأفريقيا، ساعدهم على ذلك الظنّ بسهولة الاستيلاء عليها[٨].

جاء فشل الحملة نقطة تحوّل في تاريخ الإمارات الصليبيّة، فتحرير الرها أنهى المرحلة الأولى

---

[١]- ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص٨٨. وليم الصوري، المصدر السابق، ج٢، ص٧٥٨-٧٥٩. أودو أوف دويل، الحملة الصليبيّة الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكّار، ج١، ص٢٩٥-٣١٤. فشر، المرجع السابق، ص١٨٤. أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧٤.HANS, OP, Cit, p٩٣

[٢]- أودو أوف دويل، المصدر السابق، ج١، ص٣١٥ هامش ٢.

[٣]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧٤. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٣٢.

[٤]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج٢، ص٧٥٩. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص١٨٣. عصام شبارو، المرجع السابق، ص١٢٤.

[٥]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الأوّل، ص٤٥٢.

[٦]- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٤٦٥-٤٦٦. وليم الصوري، المصدر السابق، ج٢، ص٧٨٧. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة، المصدر السابق، ص٨٩.

[٧]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص١٨٣.

[٨]- عادل حمزة، المرجع السابق، ص٥٩.

في الإفاقة العربيّة الإسلاميّة[١]، وأجّج العداء الغربيّ الأوروبيّ تجاه الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وسيتراكم هذا العداء على مدار القرن الثاني عشر حتّى يصل إلى ذروته مطلع القرن الثالث عشر، واتّضح للصليبيين في الشرق أنَّ اعتمادهم على الدعم الأوروبيّ الخارجيّ لم يغنهم شيئًا، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوّة[٢].

ثالثًا: الحملة الثالثة نقطة تحول في الفكرة الصليبيّة

اتّخذت الحملات الصليبيّة شكل الهجرة وانتقال الشعوب مِن خلال طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلد وأصحابها الشرعيين وحرمانهم مِن حقوقهم وأراضيهم[٣]. وبإلقاء نظرة على سلوك الصليبيين في الشرق، سواء فيما يتعلّق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض أم فيما يتعلّق بتصرفاتهم تجاه أهل البلد الأصليين، توضح أنَّ أولئك لم يكن لهم مِن المسيحيّة إلّا اسمها، وتؤكّد العامل الاقتصاديّ في دفعه أهالي غرب أوروبا إلى المشاركة في الحركة الصليبيّة.

فطباع الفرنجة لم تكن إلّا طباعًا قامت على الجشع المفرط الذي لا يقرّه القانون، إذ كانوا يهبطون مِن قلاعهم لينقضّوا على المسلمين وليقبضوا عليهم، ولا يفرجون عنهم إلّا بعد دفع فدية أو ليهاجموا قافلة مِن قوافل المسلمين. وفي هذه المرحلة جدّدت الغارات الصليبيّة على موانئ البحر الأحمر، فاستولوا على السلع التجاريّة في ميناء عيذاب، وأشعلوا النيران في مينائي الحوراء وينبع، وفي منطقة غابر أغرقوا سفينة حجّاج كانت في طريقها إلى جدّة[٤]. فالحرص للحصول على الكسب غير المشروع أفسد دماء الفرنجة، وإذا صبر المسلمون على قيام دولة للصليبيين، فإنَّهم لا يطيقون قيام دولة مِن اللصوص[٥]، ميزتها الغدر ونقض العهود، وهذا ما بيّنه صلاح الدين الأيّوبي[٦] عام (٥٧٢هـ/١١٧٧م) في رسالته إلى بغداد يخبر بقدوم نجدة إلى فرنج الشام، وكيف

[١]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الثاني، ص٤٦٧.
[٢]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص١٨٤.
[٣]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص٧.
[٤]- محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب، ص١٢٥.
[٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧١.
[٦]- أنهى صلاح الدين مِن تأمين حدود دولته المترامية الأطراف، وأتمّ تدريب جيشه فنظّمه وسلّحه، فبدأ بالدخول في المرحلة الثانية هي الجهاد ضدّ الصليبيين. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبيّة الثالثة صلاح الدين وريتشارد، تر: حسن حبشي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٨. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الأيّوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ٥٦٩-٦٦١هـ/ ١١٧٤-١٢٦٣م، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٥٣-١٦٤. شاكر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص١٦٧. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيّوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م، ص٦٨.
STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985, P197.

أنَّهم نقضوا الهدنة التي كانت معقودة بينه وبينهم، وهي مِن إنشاء القاضي الفاضل: «فاسخين لعقد كان محكمًا غادرين غدرًا صريحًا»[١]. وهي قاعدة رسّختها الحملة الأولى وسار على خطاها باقي الحملات والصليبيين، فما أقدم عليه حاكم الكرك رينو أوف شاتيون في شنّ الغارات المخرّبة في البحر الأحمر عام (٥٧٧هـ/١١٨٢م)، يصحّ تفسير سياسته على أنَّها نوع مِن المغامرة والنهب، ثمّ تحوّل إلى قطع الطريق واللصوصيّة، فتعرّض للقوافل التي تجتاز الطريق مِن دمشق إلى مصر، ونهب ما معهم مِن مال ومتاع[٢]. وكانت هذه سببًا جعل صلاح الدين الأيوبي يعدّ العدّة لتحرير بيت المقدس، فكانت معركة حطّين عام (٥٨٢هـ/١١٨٧م).

جاء الرد رسميًّا مِن قبل أوروبا على هذه الانتصارات[٣]، فكانت الحملة الصليبيّة الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) التي تميّزت بأنَّها لم تنبع مِن البابويّة التي كانت وقتذاك تجتاز مرحلة مِن مراحل الانهيار، إنَّما نبعت مِن السلطة الزمنيّة التي تمثّلها الملكيّات الثلاث في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، التي صار لها السيادة والسلطان في أوروبا، وما اتّخذه كلّ مِن ملكي فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني مِن وسائل للقيام بالحملة يدّل على أنَّها تحمل مظهرًا علمانيًّا، وهو الأساس الذي جعلها أكبر الحملات الصليبيّة[٤]، وإنْ كان ريتشارد، الذي تسلّم حكم إنكلترا بعد والده هنري، يأمل مِن وراء هذا الحجّ الحربي أنْ يجعل الطريق لنفسه ممهدًا فيبلغ القدس ويدخلها غازيًا على جثث أعدائه كما دخلها سلفه جودفري[٥].

واللافت للانتباه أنَّ هذه الحملة تُعدّ أقلّ شأنًا مِن الحملة الأولى على الصعيد الروحي؛ إذ نقل كلّ مِن ملكي فرنسا وإنكلترا ما بينهما مِن منازعات سياسيّة إلى الحركة الصليبيّة[٦]، إضافة لهدفها الأساسيّ في كسر شوكة العرب وتفتيت وحدتهم بعد معركة حطّين وتحرير القدس، ليتمكّنوا مِن حماية مصالحهم في احتلال الأرض العربيّة. كان سير الحملة، سواء في البرّ أو البحر، يتّجه نحو مركز واحد هو عكا، فهي النقطة الجوهريّة التي إذا أمكن السيطرة عليها، أصبح الطريق مفتوحًا إلى بيت المقدس[٧].

---

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص١٢٠. كتاب الروضتين لأبي شامة، ج١، ص٧٠٦.

[٢]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج١، ص٣٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص٨٢.

[٣]- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص٢٩٥. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٧٧. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص٣٠٣.

[٤]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٨٦. ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص٧.

[٥]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج١، ص١٤.

[٦]- المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٦- ج٢، ص٤١. ستيفن رنسمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص٩٩. نعمان الطيب سليمان، المرجع السابق، ص٣٢٨.

KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969, P45.

[٧]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج١، ص٨٤-٨٦. نعمان الطيّب سليمان، المرجع السابق، ص٢٩٣.

استهوت الحياة الجديدة في الشرق الصليبيّين، فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا مِن طباعهم وعاداتهم، وأعدّوا نفسهم للإقامة الدائمة في الشرق[١]. فقد كانت الحركة الصليبيّة دعوة إلى الاستيطان والعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق وتوطينهم فيه بصفة دائمة، دون التفكير في العودة إلى ديارهم، ونجد ذلك في أسلوب قتال الصليبيين أثناء المعارك التي حصلت لتحرير المدن بعد حطّين؛ فحين استولى كونراد دي مونتفرات على مدينة صور ٥ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٤ تموز ١١٨٧م؛ أي بعد عشرة أيام مِن حطّين، حصّن المدينة وألقى بقوّات المسلمين مِن على الأسوار إلى الخنادق، ولم يتورّع عن إطلاق السهام على والده المركيز بونيفيس الذي جاء ليطلب منه تسليم صور لقوّات صلاح الدين[٢]، فقد كانت القوات الصليبيّة تستخدم كلّ الأساليب في سبيل التمسّك بالمدن والأملاك وعدم مغادرة الشرق.

رغم اتّحاد أوروبا كلّها في الحملة الثالثة، فإنَّ ما حصلت عليه مِن نتائج كان ضئيلاً، وكلّ ما أسهم به الصليبيّون لإعادة بناء مملكة الفرنجة لم يتعدّ الحفاظ على إمارتي أنطاكية وطرابلس والمدن الساحليّة حتّى يافا والاستيلاء على عكا[٣] التي نقل إليها مركز المملكة الصليبيّة السياسي والمالي، ممّا يعني التحوّل مِن المصالح الدينيّة إلى المصالح الاقتصاديّة والتجاريّة، والتي ستصبح ميزة القرن الثالث عشر[٤]، وقد أظهر توقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م[٥] عجز أوروبا عن توحيد المسيحيّة الغربيّة وتوجيهها نحو هدف عام[٦].

رابعًا: غلبة المصالح الاقتصاديّة في الحملة الرابعة

استجابت أوروبا في الحملة الأولى لنداء بيزنطة ضدّ الشرق العربيّ، لكنْ لم تتصوّر بيزنطة يومًا أنَّ تدفّق هذه القوّات سيهدّد كيانها ويكون سببًا في انتهاء سلطانها، فمشروع قيام حملة صليبيّة جديدة ومهاجمة القسطنطينيّة، تمّ ربطهما معًا في الحملة الرابعة (٥٩٩-٦٠١هـ/ ١٢٠٢-١٢٠٤م)،

---

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٨٤.

[٢]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٢. أرنول، ذيل تاريخ وليم الصوري ١١٨٤-١١٩٧م، تر: سهيل زكّار، دمشق، ١٩٩٣م، ص٣١١، ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص٨٢.

[٣]- يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكّار، الموسوعة الشاميّة في تاريخ الحروب الصليبيّة، ٢٠٠٠م، ج٣٩، ص٣٧٢. KENNETH M. SETTON, P46 ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص١٤٥..

[4]- KENNETH M. SETTON, P522.

[٥]- نعمان الطيّب سليمان، المرجع السابق، ص٣٢١. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الأيّوبيين، ص٢٠١. STANLEY LANE-POOLE, P٢٨١-٣٤٣.

[٦]- فشر، المرجع السابق، ص١٨٨.

التي تُعدّ تاريخًا لتسلّط النزعة العلمانيّة، ومحاولة البابويّة التخلّص مِن تلك السيطرة، ومواصلة ما اشتهرت به مِن قبل في توجيه الحروب الصليبيّة[١].

كان الوارث الحقيقي لهنري السادس هو الباب أنوسنت الثالث» ١١٨٩-١٢١٦م[٢] الذي جعل الحروب الصليبيّة هدفه الأساسي، فبعد موت هنري في صقليّة عام ١١٩٧م وفشل الحملة التي أعدّ لها، تمكّن البابا أنوسنت مِن الإعداد لحملة جديدة عام ١٢٠٠م، فقام فولك نيللي بدور بطرس الناسك نفسه في الحملة الأولى[٣]. وتُعدّ الحملة الرابعة فرنسيّة في تأليفها لا في توجيهها، وقد تطلّع قادتها إلى مصر هدفًا لهم دون استشارة البابا أنوسنت الثالث[٤]، لذلك كانت الحملة الرابعة علمانيّة منذ بدايتها على الرغم مِن تحضيرات البابا أنوسنت لها[٥]، فهي مثال حيّ على انعدام الباعث الدينيّ وثبوت الاتّجاه التوسعيّ للحركة الصليبيّة[٦]، مع الانتباه للبعد الاقتصاديّ التجاريّ[٧]؛ فقد تحوّلت الحملة الرابعة إلى معترك لأغراض سياسيّة متنازعة، فتغيير اتّجاهها عن مصر كان بمثابة فكّ عقدة للصراع القديم بين الغرب الأوروبيّ وبيزنطة[٨]، وإثبات أنَّ الصليبيين استقرّوا حيث كانت هناك الوفرة الماديّة والثراء، وتوسّعوا حيث الإغراء بالتوسّع، ورفعوا شارة الصليب كمبرّر ديني في عصر كانت تلك طبيعته[٩]. فأيّ وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين اتّجهوا نحو القسطنطينيّة – وهو البلد المسيحي الكبير- لينهبوا كنائسها ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم إخوانهم في الدين؟؟ ممّا فاقم مِن حدّة الانشقاق بين الكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقيّة والكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة[١٠].

كانت خطا الحملة الأولى اللاإنسانيّة والهمجيّة طبّقت ضدّ المدن العربيّة الشرقيّة بهدف الحصول على المؤن والأملاك والغنائم، والغريب أنَّ الخطا ذاتها استخدمت بعد دخول الصليبيين

---

[١]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٩٤-٩٥.

[٢]- إسمت غنيم، الحملة الصليبيّة الرابعة ومسؤوليّة انحرافها ضدّ القسطنطينيّة، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص٥٦.

[٣]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص١٩٩-٢٠٠.

[٤]- محمود عمران، الحملة الصليبيّة الخامسة حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م/ ٦١٥-٦١٨هـ، جامعة الإسكندريّة، ١٩٨٥م، ص٨١.

[٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٩٧ هامش ١.

[٦]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٧٧.

[٧]- شارل ديل، المرجع السابق، ص٤٢. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٥.

[٨]- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص١٨.

[٩]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٦.

[١٠]- عبرَّ البابا يوحنّا بولس الثاني عام ٢٠٠١م عن حزنه لأحداث الحملة الصليبيّة الرابعة، وقال: «إنَّه لأمر مأساوي أنَّ المهاجمين انقلبوا ضدّ إخوانهم في الإيمان»، وأعرب عن اعتذاره عام ٢٠٠٤م عن مذابح هذه الحملة أثناء زيارة بطريرك القسطنطينيّة «بارثولوميو الأوّل» الفاتيكان. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٣.

إلى العاصمة البيزنطيّة، الذين اقتحموها كالجراد المنتشر وأشعلوا النيران في منازلها. وقدّر المؤرّخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت بأنَّها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة مِن مملكة فرنسا، ثمّ انطلقوا يقتلون كلّ مَنْ صادفهم مِن البيزنطيين حتّى أصبح مِن العسير حصر عدد القتلى، ثمّ جاء دور النهب الذي لم يقف عند أيّ حدّ، حتّى الكنائس والأديرة لم تسلم. ويصوّر المؤرّخون ما فعله الصليبيّون بعد دخولهم كنيسة آيا صوفيا، وكأنَّهم يسردون ما فعلته الحملة الأولى بعد دخولها مسجد بيت المقدس، فعبارة «إنَّها إرادة الربّ» وإنْ لم يردّدها الصليبيّون في القسطنطينيّة، إلاّ أنَّهم طبّقوها فعلاً، فقد اقتحموا الكنيسة فمزّقوا الستائر والبسط والمفروشات، وداسوا الكتب المقدّسة بأقدامهم وحطّموا الأيقونات، وبيعت التحف والنفائس في أسواق دمشق والقاهرة وحلب والأسواق الأوروبيّة، حتّى إنَّ الجياد البرونزيّة الأربعة التي كانت تزيّن ميدان السباق في العاصمة البيزنطيّة، قام داندلو بحملها إلى البندقيّة، وحتّى اليوم تزيّن واجهة كاتدرائيّة القدّيس مارك في فينيسيا[١].

وأصدر البابا أمرًا بأنَّه ينبغي ألاّ يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين[٢]، وكأنَّه يقول يمكن الاعتداء على غير المسيحيين، وأرسل إلى الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات رسالة يؤنّبهم على فعلتهم في اقتحام القسطنطينيّة، فقال: «لقد أصبحتم أمام العالم كلّه أهلاً للبغاء والفسوق، لقد اتّبعتم غرائزكم الآثمة، ..... استوليتم على ثروة الكنيسة وكلّ ما يخصّها، .... حطّمتم غرف المقدّسات وسرقتم الصلبان، ..... ولأنَّ الكنيسة اليونانيّة أخضعت بالقوّة، فإنَّها رفضت سيادة الكرسي البابوي....» [٣].

مع ذلك كان يفترض أنْ تدعم هذه الحملة موقف الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، لكنَّ نتائجها كانت فاجعة في جملتها، فأدّت إلى إضعاف موقف الصليبيين في الشرق بشكلٍ مباشر وغير مباشر، إذ بدأت تجذب إليها الفرسان الصليبيين لينعموا بالراحة بعيدًا عن الحروب. ونتيجة تأسيس العائلات الأرستقراطيّة للممالك في أبيروس ونيقية ودخولهم لصراعات مع المملكة اللاتينيّة في القسطنطينيّة، أنْ أصبح الطريق البريّ إلى ببلاد الشام أشدّ خطورة على الصليبيين[٤].

---

[١]- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص٩٧- ٢٦٨.
[٢]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأوّل، ص٢١٢.
[٣]- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص١١٤.
[٤]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الأول، ص٢٣٤. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص١١١.

خامسًا: ضياع هيبة البابويّة في الحملة الخامسة

كانت الإمارات الصليبيّة تدرك أهميّة الاستيلاء على دلتا نهر النيل فيما إذا أرادت هذه الإمارات أنْ تنعم بحياة آمنة مستقرّة في الأراضي المقدّسة[١]، وهذا يؤكّد السياسة التوسعيّة للفكرة الصليبيّة، لكنْ لم توضع فكرة السيطرة على مصر موضع التنفيذ، بسبب عدم توفّر الإمكانات العسكريّة للإمارات الصليبيّة، لكنَّها ظلّت هدفًا تستغلّ ظروفه كلّما كانت الفرصة مناسبة والإمكانيّات متوفّرة، مع الاكتفاء ببعض الهجمات على الحدود الشماليّة الشرقيّة لمصر المتاخمة لحدود المملكة الصليبيّة، أو على الموانئ، وقد أتت قناعة الصليبيين بتلك المحاولات طالما بقيت في مصر حكومة ضعيفة[٢].

وهنا لا بدّ مِن القول إنَّ أوربان الثاني بدأ المشروع الصليبيّ بتصوّرات معيّنة، أمّا الآن بعد الحملة الرابعة، فإنَّ الفكرة الصليبيّة أصابها التطوّر الذاتيّ مِن خلال قوّتها المتنامية وضعف جيرانها، لذلك سيُمدّ التوسّع الصليبي إلى مناطق جديدة، لذلك كانت حملة عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م) استكشاف ليتلوها الغزو الفعلي في الحملة الخامسة[٣]. هذا مِن جهة، ومِن جهة أخرى الإيديولوجيا التي انطلقت منها الفكرة الصليبيّة أخذت تفسد ويظهر زيفها مع مرور الزمن، وبدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقيّة التي كانت متوارية خلف الضجّة الإعلاميّة للحرب[٤].

وإذ انحرفت الحملة الرابعة عن هدفها الأساسيّ واتّجهت إلى القسطنطينيّة، فإنَّ الحملة الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ/ ١٢١٨-١٢٢١م) استهدفت مصر بشكلٍ مباشر[٥]، إذ تمّ توجيهها في بابويّة أنوسنت الثالث الذي رغب في رفع شأن البابويّة ليكون لها السلطة العليا الدنيويّة مِن خلال القيام بعمل صليبيّ ضخم يجني مِن ورائه نصرًا يعوّض به فشل الحملة الرابعة، وليؤيّد نصر الغرب في معركة العقاب عام ١٢١٢م بانتصار آخر في الشرق[٦].

وأكثر ما يوضّح التغيير الذي طرأ على الإستراتيجيّة العسكريّة في الفكر الأوروبيّ في ذلك

---

[١]- محمود عمران، المرجع السابق، ص٥٢. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص٣٢١.

[٢]- ريموناجيل، المصدر السابق، ص٢٢٥-٢٢٦. Fulcher of chartres, p221 ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٢، القسم الأوّل، ص٢١.

[٣]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص١٠٦-١٠٧.

[٤]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص١٤.

[٥]- أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكّار، الموسوعة الشاميّة في تاريخ الحروب الصليبيّة، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٣، ص٣٨.

[٦]- محمّد سهيل طقّوش، المرجع السابق، ص١٤١-١٤٢. KENNETH M. SETTON, p381.

الوقت، أنْ أصبحت مصر هدفًا لتحقيق أطماعهم ليس في الشرق فقط، وإنَّما في كلّ العالم الإسلاميّ، فقد أرادوا في هذه الحملة توجيه ضربة لدولة العادل الأيوبيّ قبل أنْ يتمكّن مِن القضاء على بقيّة الإمارات الصليبيّة المتفكّكة في بلاد الشام، لذلك دعمها البنادقة بهدف السيطرة الكاملة على الموانئ التي لهم فيها امتيازات تجاريّة[١]. كانت الحملة بقيادة جان دي برين، وقد اتّسمت بالعدوانيّة وطابع التعصّب[٢]؛ فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط أنزلوا بأهلها القتل والأسر والنهب، بينما احتفظ جاك دي فتري بأربعمائة طفل تمّ تعميدهم، ما يؤكّد ارتباط الناحية التبشيريّة عند الصليبيين بالفكرة الصليبيّة نفسها، ووزّعوا أحياء المدينة وأبراجها على الفرق الصليبيّة الموجودة في الحملة[٣].

لكنَّ الغريب في الأمر، أنَّ البابوية كان لها دور في فشل الحملة؛ إذ سمحت للصراع بين المندوب البابوي الكاردينال بيلاجيوس والملك جان دي برين أنْ يتحوّل إلى صراع بين السلطة الدينيّة والسلطة والزمنيّة[٤]. وفي محاولة مِن البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتّى لا تتعرّض لما تعرّضت له الحملة الرابعة، منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلو على صلاحيات القادة الزمنيين. وممّا ساهم في فشل الحملة، أخطاء رجال الدين في إدارتها، فانتاب المندوب البابويّ الغرور والعجرفة وعدم الحيلة[٥]، فكانت هذه الحملة آخر محاولات البابويّة في توجيه حملة صليبيّة تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة، لذلك كان فشلها ضربة موجّهة لهيبتها[٦].

سادسًا: ضعف الممالك الصليبيّة يؤدّي إلى الحملة السادسة

أحرزت الحملة السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩م) مِن نجاح بقدر ما أحرزت الحملة الخامسة مِن فشل، لكنَّ ظروف الحملة ووسائل سيرها جعلت نجاحها يفوق في نكبته فشل الحملة الخامسة، فهي حملة فريدة في ذاتها، علمانيّة خاصّة، وجرى توجيهها دون أنْ تقوم بأيّ عمل عدائي ضدّ المسلمين[٧]، ولم تباركها البابويّة بل صبّت عليها لعنتها، وحرصت على فشلها حتّى لا يُقال إنَّ الرجل الخارج على طاعة بابا روما قد حقّق نجاحًا لم يسبقه إليه أحد. وقد حاربت هذه الحملة؛ لأنَّها أفقدتها الدور الدبلوماسي الذي كانت تقوم به في سبيل الدعوة والاتصال بين القوى السياسيّة

[١]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص٥٧. أرنست باركر، الحروب الصليبيّة، ص١٠٩-١١٠.
[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٨٠.
[٣]- محمود عمران، المرجع السابق، ص٢٨٣.
[٤]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص٧٩-٨٣. محمود عمران، المرجع السابق، ص٣٢٥.
[٥]- محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الأيّوبيين، ص٣٢١-٣٢٢.
[٦]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص١٠٩. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٤٥.
[٧]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص١١١.

المختلفة للمشاركة في هذا المشروع[١].

لم تتّخذ هذه الحملة صفة الحرب المقدّسة، فقد ساد أوساط الحملة روح التسامح والشعور بالودّ والمجاملة، فبدت وكأنَّها زيارة وديّة لملك شرقي صديق[٢] مِن قبل ملك صقليّة فريدريك الثاني (٦٢٢-٦٤٨هـ/ ١٢٢٥-١٢٥٠م) المشهور بحريّته الفكريّة وميله نحو الشرق، فما حدث هو نوع مِن المساومة بينه وبين سلطان مصر الكامل الأيّوبي، فالإمبراطور فريدريك لم يكن في مركز يسمح له أنْ يصل إلى هدفه باستعادة القدس عن طريق القوّة، فالكثير مِن زعماء الصليبيين في الشرق لم يتعاونوا معه، ولم تتحمّس الداويّة والإسبتاريّة له بسبب حرمانه مِن الكنيسة، ولم تأتِ معه قوّة كبيرة يستطيع بها أنْ يوجّه ضربة حاسمة للقوات العربيّة، ولم يكن السلطان الملك الكامل في موقف يسمح له بتحدّي الإمبراطور[٣]، فالتقت وجهتا نظر الزعيمين على ضرورة الوصول إلى حلّ عن طريق المفاوضات[٤]، فوقّعت هدنة لمدّة عشر سنوات عادت فيها القدس للصليبيين اتّفاق يافا عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، وغادر فريدريك بلاد الشام بعد زيارته لبيت المقدس لتنتهي بمغادرته الحملة الصليبيّة السادسة.

سابعًا: الحملة السابعة جولة عسكريّة فاشلة

قامت هذه الحملة نتيجة عودة القدس للمسلمين عام (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) على يد القوات الخوارزميّة التي استعان بها الملك الصالح أيّوب، ونتيجة معركة غزّة التي تُعدّ أعظم كارثة حلّت بالصليبيين بعد معركة حطّين؛ إذ كادت أنْ تستأصل شأفة الإسبتاريّة والداويّة[٥]. صحب الحملة قيام مجمع ليون عام ١٢٤٥م، ودعوة البابا أنوسنت الرابع للحملة التي ستؤدّي إلى تدمير الحروب الصليبيّة بمعناها الأصلي الدينيّ، فقد آثر استخدام أغراضه السياسيّة لاستعادة بيت المقدس، بينما كان موقف العلمانيين معاكسًا لموقف البابا؛ إذ نهضوا في هذه الحملة لنصرة المعنى الروحي للحروب الصليبيّة، وإنْ كان هذا الموقف ضدّ البابويّة نفسها[٦].

وقد تنبّه البابا أنوسنت الرابع للقوّة الجديدة التي ظهرت على مسرح الأحداث في الشرق متمثّلة

---

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢١.

[٢]- محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الأيّوبيين، ص٣٤٤.

[٣]- حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص٣٦٢.

[٤]- المقريزي تقيّ الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م، ج١، ص٢٢٨. عادل حمزة، المرجع السابق، ص٢٩٩.

RICHARD VAUGHAN, Europe in the Middle Ages Selected Studies, oxford, 1979, v11B, p321.

[٥]- حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص٣٨٥. عصام شبارو، المرجع السابق، ص١٩٠. KENNETH M. SETTON, p489 .

[٦]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٤٤١. أرنست باركر، المرجع السابق، ص١٢٠.

بالمغول، فما قاموا به مِن أعمال حربيّة وتدمير وقتل، يشابه ما قام به الصليبيّون في القدس، فكانت لديه الرغبة في استغلال هذه القوّة في محاربة العرب ومحاصرتهم مِن الشرق والغرب بين قوّتين، فأرسل البعثات للقيام بحرب صليبيّة عامّة لانتزاع الأراضي المقدّسة مِن الحكم الإسلامي، وهذا ما فعله الملك لويس التاسع لتحقيق هذه السياسة قبل مغادرته أوروبا، وحتّى بعد وصوله جزيرة قبرص عام ١٢٤٩م[١].

اتّجه الملك لويس التاسع بهذه الحملة لمهاجمة مصر عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، دون أنْ تسفر اتّصالاته مع التتار إلى أيّ نتائج ولعلّ ما اشتهرت به مصر مِن الثروة والمناعة، مع ضعف الدولة الأيوبيّة، ساهم في اختيارها هدفًا لهذه الحملة[٢].

فشلت الحملة الصليبيّة بعد معركة المنصورة[٣]، وأُجبر الملك لويس على المغادرة إلى عكّا بقي فيها أربع سنوات (١٢٥٠-١٢٥٤م) يحاول أنْ يوطّد مملكة بيت المقدس وتصفية الخلافات بين الأمراء الصليبيين[٤]، وجمع جيشًا صليبيًّا تحضيرًا لحملة جديدة، لكنْ عدم وجود الإمكانيّات واستمرار النزاعات بين البابويّة والإمبراطوريّة، أصاب أوروبا بالشلل، فغادر الشرق عام ١٢٥٤م[٥].

ثامنًا: آخر الحملات الرئيسة الحملة الثامنة

بعد مغادرة لويس التاسع عكّا زادت المنازعات بين الأمراء الصليبيين والتجّار الإيطاليين[٦] والمنظّمات العسكريّة الداويّة والإسبتاريّة. بالمقابل على الجبهة العربيّة، ثبتت أركان الدولة المملوكيّة بعد انتصار المماليك في عين جالوت عام١٢٦٠م، فرتّب الظاهر بيبرس الجبهة الداخليّة للدولة، ورتّب علاقاته الخارجيّة، وبدأ بتحرير البلاد مِن الوجود الصليبي بحربٍ شاملة[٧]، فقضت انتصاراته على آمال الصليبيين في البقاء طويلاً في بلاد الشام، ونشط دعاة الحركة الصليبيّة في

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ص٢٥٥-٢٧٢. فايد حماد محمّد عاشور، الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٢-٨٩.

[٢]- ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٠. فايد حماد محمّد عاشور، المرجع السابق، ص٦١-٦٢. المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٣٦. ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٤٤٥.

[٣]- المقريزي، السلوك، ج١، ص٣٥٦. ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٦، ص٣٦٦. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ المماليك، ص٣٧.

[٤]- ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٦، ص٣٦٩. فايد حماد محمّد عاشور، المرجع السابق، ص١٢٩-١٣٠.

[٥]- مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٥٣.

[٦]- شارل ديل، المرجع السابق، ص٥١. RICHARD, Op, Cit, V11B, p361.

[٧]- فتمّ تحرير قيسارية وأرسوف عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وتحرير صفد وهونين وتبنين ومدينة الرملة وبلاد سيس عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، وتحرير يافا وأنطاكية عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م. المقريزي السلوك، المصدر السابق، ج١، ٥٢٦-٥٣٤-٥٥٢-٥٦٥-٥٦٨-٥٧٠. ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٧، ص١٤٠-١٤٣. فايد حماد محمّد عاشور، المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٦-١٤٩-١٥٠-١٥٥. وفاء محمّد علي، جهود المماليك الحربيّة ضدّ الصليبيين، الإسكندريّة، ط٢، ١٩٩١م. ص١١-٢٤. عزمي عبد محمّد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين في عهد المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، الأردن، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٣-٤٣-٥٠.

محاولة لإنقاذ الوجود الصليبي. وبعد تدهور قوّة مملكة أرمينيا، توجّه الصليبيّون نحو قبرص، فتمّ توحيد التاجين تحت حكم الملك هيو الثالث، الذي بدأ يعمل في عدّة اتّجاهات لتقوية الجبهة الداخليّة للمملكة، فتارةً يفكّر بقدوم حملة جديدة، وتارةً يشجّع المغول على غزو بلاد الشام[١].

وفعلاً كانت حملة الملك لويس التاسع، وهي ثالث الحملات بالنسبة له، لكنَّ وجهتها هذه المرّة كانت نحو تونس عام ١٢٧٠م، فالهدف منها استمالة حاكمها المستنصر إلى المسيحيّة على المذهب الكاثوليكي، مع إضافة إقليم جديد يقع في بقعة بالغة الأهميّة الإستراتيجيّة[٢]، ومِن ثَمَّ مواصلة الزحف إلى مصر التي أصبحت خطّ الدفاع الأوّل عن العالم العربيّ، ومركز إمداده بالجند والميرة والسلاح، فالقضاء عليها يؤدّي إلى امتلاك الأراضي المقدّسة وتحقيق الأطماع الصليبيّة[٣].

لكنَّ موت الملك لويس التاسع بمجرّد وصوله سواحل تونس، أصاب الحملة بالفشل[٤]، وكانت النهاية الفعليّة للحملات الصليبيّة، فلم يعد يخرج مِن أوروبا جيش لإنقاذ الإمارات الفرنجيّة في الشرق[٥]. ترافق ذلك مع تكثيف سلاطين المماليك[٦] جهودهم للقضاء على بقايا الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، إضافة لذلك تغيير سياسة المدن التجاريّة البندقيّة وجنوا باعتماد التعامل المكشوف والمباشر مع المماليك[٧]؛ إذ تمكّن قطز ثمّ بيبرس ثمّ قلاوون مِن توظيف سلسلة مِن التحالفات والمعاهدات مع المغول والصليبيين، مع متابعتهم تحرير الأرض العربيّة، فكانت عكّا آخر مدينة يتمّ تحريرها في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٨]، فذهبت عبثًا صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي أرسل يستنجد بالغرب، موضحًا أنَّ يوم عكّا قريب[٩]، ولم يعد يتمكّن البابا جريجوري العاشر مِن الإعداد لحملة صليبيّة جديدة، فرغم لباقة التقارير التي جمعها عن سبب عداء الرأي العام لهذا الموضوع، إلّا أنَّها لم تتعرّض للمشكلة الجوهريّة، وهي أنَّه لم يعد للحرب الصليبيّة التقليديّة ذاتها قيمة بعد هذا التاريخ.

---

[١]- فايد حماد محمّد عاشور، المرجع السابق، ص١٥٨-١٦٠. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص٦٣.

[٢]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٥٠١.

[٣]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٨٠-٨١.

[٤]- المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص٥٩٠. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ المماليك، ص١٢٧.

[٥]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٥٠٣.

[٦]- وفقًا لمعايير عناصر القوّة ومعايير ممارسة النفوذ، كانت دولة المماليك ولمدّة ثلاثة قرون الفاعل المركزي في العلاقات الإسلاميّة الدوليّة. نادية لطفي، المرجع السابق، ج١٠/ص٧.

[٧]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص٥٧٥.

[٨]- المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص٧٦٤. وفاء محمّد علي، المرجع السابق، ص٣٤.

[٩]- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشهانيّة، ١٢٨١هـ، ج٤، ص٢٥-٢٦. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص٨٢-٨٤.

خاتمة

الحركة الصليبيّة مرحلة مِن مراحل الكفاح الطويل بين الشرق والغرب، جاءت نتيجة عمليّات تطوّر بطيئة مستمرّة لفترات متباعدة، وقد تركت آثارها لأحقاب أخرى بعد نهايتها. فهذه الظاهرة التاريخيّة تمثّل روح العالم الغربيّ الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلاً صادقًا في ناحيتي الدين والحرب، الأولى مثّلتها قوّة الكنيسة المسيطرة في تلك القرون[١]، والثانية مثّلها النظام الإقطاعيّ، فكانت الحرب صناعة الفرسان[٢]. كما أنَّ النزاع بين البابويّة والإمبراطوريّة جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التي تزوّد بها المجتمع الغربي خلال نهضة القرن الحادي عشر، وكان مِن المتعذر أنْ تستنفد هذه الطاقة في صراع داخليّ، فلا بدّ مِن البحث عن منفس خارجيّ لتوجيه هذه الطاقة إليه[٣]. ومماّ شكّل الفكرة الصليبيّة وساهم في تكوينها، ثلاثة روافد أساسيّة، الحرب المقدّسة والحجّ المسيحيّ، الحروب الإقطاعيّة وحركة السلام التي كانت نتيجة مباشرة لها كتيّار جرماني، ثمّ المؤثّرات الإسلاميّة نتيجة غير مباشرة كتيّار خارجيّ[٤].

تمتدّ الحملات الصليبيّة الرئيسة المتوجّهة إلى بلاد الشام ما بين عامي (١٠٩٥-١٢٩١م). هذه المرحلة التاريخيّة تمثّل الدور الحاسم التقليديّ لتلك الحركة، لكنَّ هذه الحركة بمعناها الواسع لها جذور ومقدّمات، والتيّار الصليبيّ استمرّ بعد تحرير عكّا عام ١٢٩١م طيلة القرن الرابع عشر الميلاديّ[٥]. والسبب في اتّخاذ الحروب الصليبيّة أرقامًا معيّنة، ترجع إلى أنَّها حدثت بعد وقوع كارثة مثل عودة الرها عام ١١٤٤م، فكانت الحملة الصليبيّة الثانية، أو تحرير القدس عام ١١٨٧م، أو قادها ملوك وأباطرة مثل الحملة الصليبيّة الثالثة، أو لما أحرزته مِن نجاح أو فشل مثلما جرى للحملتين الرابعة والخامسة، إذ قلّما مضى عام دون أنْ يقدم أثناءه جماعات جديدة إلى الأرض المقدّسة[٦]. فالحملات الصليبيّة مشروع واحد لا يتجزأ، وإنْ كان الهدف مِن التجزئة سهولة الدراسة[٧].

إنَّ النظرة التقّليديّة لأسباب قيام الحرب الصليبيّة جعلت السبب الديني هو الأساس في قيامها،

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٠.
[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٤١-٤٢.
[٣]- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٢١.
[٤]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص١٣.
[٥]- محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص١٩.
[٦]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧٣.
[٧]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ٨٦-٨٧.

فهو حجّ مسلّح، هدفه تحرير القبر المقدّس في كنيسة القيامة[١]. علماً أنَّ مصطلح الحملة الصليبيّة لم يظهر إلّا في منتصف القرن الثالث عشر، ليحلّ محلّ التعبيرات السابقة مثل الطريق، رحلة القدس، الرحلة الاستكشافيّة، العبور إلى ما وراء البحر.

لا يمكن إنكار العامل الدينيّ، لكنَّه كان نابعًا مِن تديّن عاطفيّ يقوم على التعصّب المقيت، ولم يكن نابعا مِن تديّن عقلانيّ حقيقيّ[٢]. ففكرة الحملة الأولى تعبرّ عن كيف كان الأوروبي في ذلك الزمان لا يسمح أنْ يعترف بوجود «الآخر»، فهذا «الآخر» لم يكن نتاجًا لمعرفة واقعيّة، إنَّما كانت صورته نتاج دعاية نزقة غذّتها الكنيسة وغلّفتها روح التديّن العاطفي الذي يشوبه التعصّب المقيت[٣]، وهناك أدلّة ملموسة تكشف عن استغلال عامل الدين، مثل الخطاب المنسوب إلى ألكسيس كومنين[٤].

لو كانت الحروب الصليبيّة مجرّد حركة لاسترداد الأراضي المقدّسة وحماية الحجّاج الغربيين، لاقتصر ميدانها على بلاد الشام، لكنَّها كانت وسيلة للتعبير عن رفض الأوروبيّ لأوضاعه السيّئة، ولعلّ الصفقات التجاريّة المعقودة بين التجّار الإيطاليين ومملكة بيت المقدس فيما بعد، تعطي دليلاً على المصالح الاقتصاديّة للحركة الصليبيّة؛ لأنَّها تفتح طريق التجارة إلى بلاد الشرق، سواءً بلاد الشام والعراق وصولاً إلى الهند والصين. ويؤكّد وضوح هذا الاتّجاه الاستغلالي في الاحتلال والسيطرة، تطوّر العلاقات بين الجاليات التجاريّة والممالك الفرنجيّة إلى قتال وحروب دامية على المكاسب والأموال[٥]، لذلك كان شعار التجّار البنادقة «لنكن أوّلاً بنادقة، ثمّ لنكن بعد ذلك مسيحيين» [٦]Sismo Venezini, poi Christiani. فالعامل الاقتصاديّ له مِن القوّة والأهميّة ما يجعله سببًا في تحريك الأحداث[٧].

أمّا سياسيًّا، فقد وجدت البابويّة فيها وسيلة ناجحة لتوجيه الغرب نحو وجهة واحدة، حيث تمكّنت مِن خلالها مِن تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدّرات القوى السياسيّة، فحجم المكاسب كان ضخمًا، وقد تهيّأ لكلّ الدوافع السابقة القائد الفرد الذي امتلك القدرة على تحريك

[١]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج١، ص١٦٨-١٧٣. أرنست باركر، المرجع السابق، ص٢٢.
[٢]- يوشع براور، عالم الصليبيين، ص١٨.
[٣]- فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص٤. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٣٢.
[٤]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، الملحق الأوّل، ص٣٠٧.
[٥]- المرجع السابق، ج١، ص٨٩. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٧.
[٦]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢٤.
[٧]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص٣٤. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص١٠.

أحداث التاريخ وتحريك الحشود الضخمة مِن البشر مِن أجل المشاركة في تحويل الفكرة القائمة إلى واقع معاش تشترك الجماهير في صنعه، وهو ما حدّث البواعث مع القائد التاريخي والجماهير ككتل شعبيّة صنعت الأحداث، فكانت الحروب الصليبيّة[١].

ولكنْ ما هيّأ الأذهان والعقول لانفجار الأحداث وجعل لكلمات أوربان أثرًا فعليًا معاشًا، هو انتشار ظاهرة العنف في المجتمع الأوروبيّ، فعرض أوربان الفكرة على شكل حرب تحرير وكفّارة قاسية تستحقّ المديح لتحقيق هدفين: الأوّل تخليص الكنائس الشرقيّة، وخاصّة بيت المقدس؛ أي تحرير الشعب، والثاني تخليص بيت المقدس مِن حالة العبوديّة التي يعيشها؛ أي تحرير المكان. وهذا ما جعل الحملة الأولى رحلة للحجّ إلى الأرض المقدّسة[٢].

كانت هذه الحملة نتاجًا لخبرات الذين شاركوا فيها، فأصبحت المثال الذي جرت أوروبا على مدى قرنين تقريبًا منذ عام ١٠٩٦ وحتّى ١٢٩١م على الاهتداء به، وعلى درب هذه الحملة المظفّرة توالت على شاطئ المتوسّط الشرقيّ موجات عديدة جاءت بعشرات الألوف مِن الحجّاج المسلّحين[٣] الذين سعوا إلى تحقيق المجد والشهرة والمال مِن خلال أعمال السلب والنهب والعنف، فكانت الحملات الصليبيّة هي حركة الاستخراب الأوروبيّ في العصور الوسطى لسلب ثروات المنطقة العربيّة البالغة الحيويّة في حركة الاقتصاد العالمي حينذاك[٤].

هيّأت الحروب الصليبيّة للناس أنْ يوقنوا بأنَّهم لم يبلغوا العالم الآخر إلّا بما يقومون به مِن قتال عنيف على ظهر الأرض[٥]. هيّأ هذا المبدأ مشاركة أوروبيين في الحملات الصليبيّة كافّة، وقد أتى بنتائج جيّدة ساهمت باستمرار الصليبيين في بلاد الشام على مدار قرنين مِن الزمان، خصوصًا أنَّ الإمارات الصليبيّة التي أقيمت، كانت حريصة على تحقيق الربح والكسب المالي، فكانت الغارات متواصلة على المناطق الريفيّة غير المحصّنة والاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكّان؛ سياسةً اتّبعها الصليبيّون مع المناطق الداخليّة لطرد السكّان الأصليين، وما يوضح رغبات الصليبيين معاملتهم مع مسيحيي بيت المقدس بعد المذبحة الرهيبة التي حصلت لسكّانها؛ فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم مِن الكنائس والبيوت، وغادرها البطريرك إلى القاهرة[٦].

---

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢١-٣٠.
[٢]- جوناثان ريلى -سميث، المرجع السابق، ص٢٦-٣٩-٤٠-٤٨-٥٧-٥٨.
[٣]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص١٢. يوشع براور، المرجع السابق، ص٢١.
[٤]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص١٣.
[٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص١٣.
[٦]- مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٢٧.

والواقع أنَّ الحرب هي الغرض الأساسي الذي قامت لأجله الحملات الصليبيّة، فالحرب كانت أساس الحياة في الإمارات التي أقيمت في الشرق العربي. وما يؤكّد هذه القاعدة عدم تمكنّ قادة الحملات الصليبيّة مِن تنفيذ وعودهم بل وضعفهم على فرض معاهداتهم على الأطراف الذين يقدّمون لهم المساعدة، فإذا استطاع بلدوين الالتزام بوعوده لحاكم طرابلس، فلم يتعرّض للنهب والتخريب ما كان تحت يديه مِن المناطق؛ فإنَّه لم يستطع فرض ذلك على الجنويين، الذين شقّوا طريقهم إلى داخل طرابلس فأخذوا ينهبون ويحرقون الدور ويقتلون كلّ مَنْ صادفهم. وفي غمرة هذه الفوضى أتى الحريق على مكتبة بني عمار التي كانت تُعدّ أروع مكتبات العالم، فحلّ الدمار بكل ما تحتويه[١]. ومِن أجل هذه الحرب ارتكب الصليبيّون العديد مِن الجرائم الدمويّة. إنَّهم همج أتوا لتدمير حضارة الشرق التي احتاجت لقرنين مِن الزمان لتتمكّن مِن التأثير على طباع هؤلاء المحاربين فتهذّبها إنسانيًّا وأخلاقيًّا.

[١]- رنسيمان، ج٢، القسم الأول ص١١٣-١١٤.

لائحة المصادر والمراجع

١. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، الكامل في التاريخ، حقّقه: عمر عبد السلام تدمري، ج٨، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م.

٣. أرنست باركر، الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، بيروت، ط٤، ١٩٦٧م.

٤. أرنول، ذيل تاريخ وليم الصوري ١١٨٤-١١٩٧م، تر: سهيل زكّار، دمشق، ١٩٩٣م.

٥. أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتّي، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، ب.ت.

٦. إسمت غنيم، الحملة الصليبيّة الرابعة ومسؤوليّة انحرافها ضدّ القسطنطينيّة، دار المعارف، ١٩٨٢م.

٧. أودو أوف دويل، الحملة الصليبيّة الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكّار.

٨. أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكّار، الجزء ٣٣ مِن الموسوعة الشاميّة في تاريخ الحروب الصليبيّة، دمشق، ١٩٩٨م.

٩. ابن تغري بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصريّة، ١٦ جزء.

١٠. ابن جبير أبو الحسين محمّد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت.

١١. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبيّة الأولى، مكتبة الحروب الصليبيّة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.

١٢. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبيّة الثالثة صلاح الدين وريتشارد تر: حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين، العددين ١٨١-١٨٢، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠٠م.

١٣. جوناثان ريلى -سميث، الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، تر: محمّد فتحي الشاعر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.

١٤. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠٠م.

١٥. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلاميّة في مواجهة المخطّطات الصليبيّة جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧م.

١٦. رأفت عبد الحميد، قضايا مِن تاريخ الحروب الصليبيّة، ط١، ١٩٩٨م.

١٧. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكار، ج٣٩ مِن الموسوعة الشاميّة في تاريخ الحروب الصليبيّة، ٢٠٠٠م.

١٨. ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس، تر: حسين عطيّة، الإسكندريّة، ١٩٩٠م.

١٩. سالم محمّد الحميدة، الحروب الصليبيّة عهد الجهاد المبكّر، ج٢، بغداد، ١٩٩٠م.

٢٠. ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، ج١، لبنان، ١٩٩٧م.

٢١. سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبيّة، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.

٢٢. سعيد عبد الفتّاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م.

٢٣. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

٢٤. سهيل زكّار، الحروب الصليبيّة الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كُتبت أصلاً بالإغريقيّة والسريانيّة والعربيّة واللاتينيّة، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

٢٥. شارل ديل، البندقية إمبراطوريّة أرستقراطيّة، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م.

٢٦. شاكر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٢٧. عادل حمزة، العلاقات السياسيّة بين الدولة الأيوبيّة والإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة زمن الحروب الصليبيّة، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠١م.

٢٨. عزمي عبد محمّد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين في عهد المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، الأردن، ط١، ١٩٩٥م.

٢٩. عصام محمّد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة-الأيوبيون، بيروت، ١٩٩٤م.

٣٠. علي السيّد علي محمود، العلاقات الاقتصاديّة بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٣١. علي محمّد الصلابي، الأيوبيّون بعد صلاح الدين، دار المعرفة، ط١، ب،ت.

٣٢. علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبيّة، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط٢، ٢٠٠١م.

٣٣. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلاميّة للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م، دمشق، ٢٠٠٥م.

٣٤. فايد حماد محمّد عاشور، الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

٣٥. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشهانيّة، ١٢٨١هـ.

٣٦. فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١م.

٣٧. قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى نصوص ووثائق تاريخيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠١م.

٣٨. ابن القلانسي حمزة بن أسد بن علي بن محمّد التميمي، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥هـ، تحقيق: سهيل زكّار، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م.

٣٩. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبيّة، تر: أحمد الشيخ، ط١، ١٩٩٥م.

٤٠. متّى الرهاوي، تاريخ متّى الرهاوي الإفرنج الصليبيّون، المسلون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفى، الأردن، ٢٠٠٩م.

٤١. محمّد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي ٤٨٩-١٢٠٦هـ/ ١٠٩٦-١٤٠٤م «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام ٥، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٤٢. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.

٤٣. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ٥٦٩-٦٦١هـ/ ١١٧٤-١٢٦٣م، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٤. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ٥٢١-٦٣٠هـ/ ١١٢٧-١٢٣٣م، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٥. محمّد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

٤٦. محمّد مؤنس عوض، الحروب الصليبيّة، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/ ٦-٧هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٧. محمود عمران، الحملة الصليبيّة الخامسة حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م/ ٦١٥-٦١٨هـ، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٥م.

٤٨. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبيّة ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعيّة، ٢٠٠٠م.

٤٩. مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبيّة، ط١، ١٩٩٧م.

٥٠. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م.

٥١. المؤرّخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربيّة السعوديّة، ١٩٥٨م.

٥٢. ناديا محمّد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبيّة ٤٩٨-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦-١٢٩١م، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م.

٥٣. نادية محمود لطفي، العصر المملوكي مِن تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبيّة الثانية، الجزء العاشر مِن العلاقات الدوليّة في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٥٤. نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط١، ١٩٩١م.

٥٥. ه.ا.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العريني، مصر، ط٣، ١٩٥٧.

٥٦. وفاء محمّد علي، جهود المماليك الحربيّة ضدّ الصليبيين، الإسكندريّة، ط٢، ١٩٩١م.

٥٧. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة الأعمال المنجزة فيما ما وراء البحار، نقله للعربيّة: سهيل زكّار، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ج١، ص١٤١.

٥٨. يعقوب الفيتري يطريرك عكّا، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، الأردن، ١٩٩٨م.

٥٩. يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة، ط١، ١٩٩٩م.

60. Gino Lazzatto, An economic History of Italy, London,1961.

61. HANS EBERHARD MAYER, THE CRUSADES, tr: JOHN GILLINGHAM, OXFORD, ED 2, 1988.

62. KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969.

63. MARGARET RUTH MORGAN, DOCUMENTS SELATIFS A L'HISTOIRE DES CROISADES PUBLES PAR L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES – LETTRES, XIV, LA CONTINUATION DE GUILLAUME DE TYR 11841197-, PARIS, 1982.

64. RICHARD VAUGHAN, Europe in the Middle Ages Selected Studies, oxford, 1979.

65. STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985.